خيبات اللغة و مفاتيح الانتظار في نص جرس لسماوات تحت الماء للشاعر عثمان لوصيف دراسة جمالية

The defeat of language and the horizon of waiting in the bell of the underwater skies by the poet Othman Lausif

أ/ لحسن عزوز

"قسم الآداب و اللغة العربية كلية الآداب و اللغة العربية- جامعة محمد خيضر بسكرة
مخبر وحدة التكوين والبحث في نظرية القراءة ومناهجها
lahcen.azzouz@univ-biskra.dz

تاريخ الإيداع: 2020/04/19 تاريخ القبول: 2020/12/30 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص البحث :

الشاعر عثمان لوصيف ، هو شاعر المغايرة و التجاوز و ما هو آت ..و الجنوبي الذي تفضحنا قصيدته كل يوم و تتكشف منذ البداية ن على وعي في طرائق وعرة قاسية شاقة ، و في مراجعات مفتوحة لا أحد ذكر نسيانها بتعبير فوكو ن فبقيت نصوصه محكومة بالسياقات الجمالية في حرقة الأسئلة و في درجتها المائة ، من نصه غردايا إلى الإشارات و لعينيك هذا الفيض الإرهاصات ، اللؤلؤة ، قصائد ظمأى ، أبجديات الكتابة بالنار ، شبق الياسمين ، أعراس الملح، كان يقدم إلينا صوته الحار الجارح و الكاشف عن لعبة الأقنعة و جراح التاريخ و ظلال الأسطورة و حلول الذات ، وفي قصيدته جرس لسماوات تحت الماء نعثر على طريقة استبصاره و فن تمرده و صراخه في زمن الهزيمة إنها قصيدة الأسئلة.

الكلمات المفتاح : لغة مغايرة ، إنتاج ، أفق انتظار ، نص .

Abstract

The poet Othman Lausif is a different poet .. And the Southern offers us the two halves each time with a new and continuous awareness in terms of the (Ghardaia to second language and li aynayki hadha el faydhe and irhasate el icharate and to your eyes this loeloa, el kitaba bi nnare …, he used to present to us his voice revealing the game of masks and details of history and the shadows of legend and the essence of self, and in his poem a bell for the underwater skies we find an aesthetic way in the art of rebellion and screaming and the question.
Keywords: Contrasting language, production, horizon, text

تقول سعاد الحكيم في كتابها (عودة الواصل)

""و هكذا شعرت .. أن علوم النخبة الصوفية تنقلني من بنية عقلية مشتركة و كلية و ثابتة إلى بنية عقلية فردية و خاصة و متحركة ""

مفتتح :

خيبات أمل و غرفة انتظار...

لا يمكن تحديد وظيفة اللغة من وجهة نظر تداولية خطابية ، بمعزل عن الإستراتيجيات التي يوظفها المرسل و يتفاعل معها المتلقي، و لا يمكن تحديد هذه الأستراتيجيات التي يتقاطع معها الخطاب ، بمعزل عن المقاصد النفعية البراغماتية الجمالية و التذوقية .

و الشاعر عثمان لوصيف * شاعر الرفض بامتياز ، حيث يتميز نصه بحركة خلاقة ميتا لغوية تأويلية ، تنفتح على نصوص و مكونات لغوية و خارج لغوية par – linguistic .. و الجنوبي الذي تفضحنا قصيدته كل يوم من الكتابة بالنار» 1982، «شبق الياسمين» 1986، »أعراس الملح» 1988، «الإرهاصات»، «نمش وهديل» 1994، «التغابي» 1999، »كِتاب الإشارات»، «زنجبيل»، »غردايةَ«، »قراءة في ديوان الطبيعة«، كان يقدم إلينا صوته الحار الجارح و الكاشف عن لعبة الأقنعة و جراح التاريخ و ظلال الأسطورة ، وفي قصيدته جرس لسماوات تحت الماء نعثر على طريقة استبصاره و فن تمرده و صراخه ، في زمن الهزيمة إنها قصيدة الأسئلة. و البحث في نتاج بشري ساهم في تقديم رؤيا مغايرة مستمرة للإنسان و للمشكلات ، في فجوة انتظارية دائمة الدهشة بحرقة الأسئلة فالإنتاج المعرفي عند عثمان لوصيف كتلة صماء ، و كان لزاما تفكيك و هدم ذلك في نقد ذاتي مستمر لا نهائي ، العملية ليست تكرارا و لا نموذجا إنما هي عملية مغايرة صادمة نافية للمعلوم و موجبة للمجهول ؟ لتشكيل هوية راسخة ... و تراب وطن ..

القارئ :فعل المقاومة و تحولات الذات :.

شعر عثمان لوصيف ، يجعل النصوص في إنتاجها و قراءاتها المتعددة و تداعياتها و ترجيعاتها، بعيدة و عميقة، في مثاقفة ساحرة ،و كأن (عثمان) أركيولوجي تخييلي يجمع الأزمنة و العناصر في أعماله البصرية اللافتة كما أن نصوص الشاعر فيها الكثير من أسئلة الاحتمالات و التأويلات المتعددة، البعيدة عن التوضيح و الإبانة و بعيدا عن التبرير و التفسير، إنها هيرمونوتيكا الشعر التي تفتح للقارئ حرية التحرك بين مقصود المعنى و افتراضات التصور و إنتاج الدلالة، وفق هذا المنظور التأويلي الإنتاجي الذي يدخل مع سؤال الشعر في محاورة و جدل تبرز القراءة الثانية الإنتاجية كفاعلية إبداعية متميزة. وفي نطاق هذا الإمتداد والإتساع الذي تمتلكه اللغة الشعرية- عند عثمان لوصيف – تمتد إشكالية النص الشعري (جرس لسماوات تحت الماء) من ديوانه بنفس العنوان ومن هذا الامتداد كله، كيف يمكن للقارىء أن يقتحم النصوص بل يقاومها مرة و مرة وماذا يتشكل من وراء هذا الاقتحام، وإلى أي درجة تأويلية كانت لغة الشاعر لوصيف ؟ وماذا أضاف لشبكة الاحتمالات وإنتاج الدلالات، وكيف وفق بين رؤيا العالم للقارئ و بين الكتابة بلغة شعرية ذات محمولات جديدة، لتشكيل هوية راسخة في زمن عقيم يدور على نفسه ؟ وما الأسئلة الحارقة التي ارتبطت بنصوص الشاعر (عثمان لوصيف المنفتحة على توالي النصوص الغائبة وعلى نصوص القراءة المتعددة والاهتمام بالموروث الحكائي وتوظيفه رمزيا.

إنها الأسئلة الأكثر إلحاحا في الوعي النقدي الحداثي، تلامس و تستبطن نصوص عثمان لوصيف لتحقيق اختيارات الروح والحدس و التأمل والإنتاج والجمال.

و قصيدة (جرس لسماوات تحت الماء) لعثمان لوصيف تكشف روح المغايرة ، يقول الشاعر :

جرس أطارده فيجرحني الرنين
صدى يسافر في يدّي
غمامة تدنو وأخرى تهربُ
وأنا أهرول في سهوب العمر
أبحث عن جراحاتي التي انهمرت هنا
بالأمس منّي هل رعاها الأنبياء
فبرعت مزهوّة
أم أنها طارت إلى آفاقها تتلهّبُ
ويسيل لحن من فمي

فإذا البروق تدغدغ الأرض المريضة
تمسح الأعشاب والأهدابَ
والشجرُ المضرّج بالصبابة.. يطربُ
وإذا الطبيعة كلها سرّ يكاشفني
فأبصر في مراياها الحميمة طفلة عصماء
تسقيني الحنان فأشربُ
وأصير طفلا يستجيب للغوها
ويضيع في أحداقها الخضراء
يا ليت الطفولة سحرها لا يذهبُ
آهٍ ! على جرس توغّل في الضباب
فلا يعود سوى زفرات ناي نازف
أمطاره لا تتعبُ
أشدو .. أصلّي فالعناصر كلها تتأهّبُ
شوق النواميس استبدّ
ولألأت أسطورة قد مسّها الإغواء
فالكون استوى أيقونة من فضة
وأنا أنت نسيج في تاريخها
ماذا؟ وروحانا توحّدتا بها
هل تبصرين قصيدة
في مهرجان سطوعها تتوثّبُ؟
يا حبُّ يا جمر الكلام أعد.. أعد ما تكتبُ !

-2-

من أين حنجرة بزغت على الوجود
موقّعا تاريخك الشبقيّ
يا وجعا سماويا ويا شفقا مذاب
هل كنتَ في رحم السدائم ؟
ثم إذ خنّت إليك الأرض بعد سقوطها
في دورة الأشياء مزّقت الحجاب
وهرقت عشقك أنجما وحمائما

تنساب في غبش أنجما الضباب ؟
يا أيها الجرح الإلهي اشتعل
وخذ الخطاب
أنت الندى.. أنت المدى
أنت البداءة أنت.. أنت أنا
وأنت قصيدتي تجتاح هذا البرزخ المهجور
تخترق السراب
وتفيض ملء حقولنا الجدباء
عيدا من سحاب
جرس.. هو النبض السديميّ البعيد
هو الهوى الكونيّ وهو المعجزات الألف
تزهر في كتاب
يا أيها السارون في عمه الدجى
سيروا على إيقاع هذا الحرف
وانتصروا .. لكم سهري شهاب
برق هو الصوفيّ.. واللغة النبيّة
وابل يغشى اليباب! [1].

الشعر هنا يصبح ساحة تفنى فيها عناصر و تتخلق عناصر غيرها و ذاكرة حية ، و تتحد فعالية العناصر المتولدة، بمقدار ما تقتنص من رؤى و ما تحتوي من إمكانات الكشف و طاقات التغيير ، بهذا التصور يكون الشعر " ساحة يصطخب فيها الجدل بين عناصر الثبات و الحركة "[2] ، و قصيدة (جرس لسماوات تحت الماء) ، كانت بدورها رؤيا رمزية تحوي إحساسا مفعما بالقلق ، محرورا يتلظى بنار و نشيد وئيد ، هادئ ، متباطئ ، يتجسد فيه لسان الشاعر الحكيـــم

و أسلوبه ، بما فيهما من تعقل و رصانة و تؤدة و رغبة في الكشف و التعليل ، و الاستنتاج .. إنها قصيدة تقتصد الرمز و تتوسله (الجرس) في (ذات الشاعر) ، فنجد ، الصدى يتصل باليد و غمامة تدنو و أخرى تهرب و البروق تدغدغ الأرض المريضة ، و كلها تفقد الحرية و الاطمئنان و الهناء و الأمان و السكينة ، بجراحاته و أمطاره و زفراته و ضبابه و أشجاره و أوجاعه كما النص الحداثي تماما ، " فقد طرحت الحداثة مقولة التجاوز المستمر و رفض التشكل النهائي و

مفهوم الكمال و كانت الحداثة في الجوهر قلق النمذجة و رفض النموذج و سلطة المتشكل السائد "[3]. و الآن .. لنكن في الدرب إلى المشهد الأول من القصيدة :

تبدو الصورة الشعرية ، لمتأملها حافلة بالدلالات الرمزية المتلاحقة ، و عالما غامرا بفيض الإيحاء .. الإيقاع يطارد الشاعر ، الذي لا يعرف الاستقرار و الأمان ، إنه (ها) يعيش (الجرس / الشاعر) حالة اغتراب (أطارده) ، و يفضل العيش الآن في الخفاء و عدم الخوض في أتون الحياة (الخرسانية) التي تصطرع فيها رغبة الخلود مع الموت ! :

جرس أطارده فيجرحني الرنين
صدى يسافر في يدّي
غمامة تدنو وأخرى تهربُ
وأنا أهرول في سهوب العمر
أبحث عن جراحاتي التي انهمرت هنا ؟

الشاعر (لوصيف) هنا، يجتزئ من نفسه ذاتا أخرى ، يتحدث بلسانها عن نفسه ، إنه (الجرس و الصدى) ،هي المعلقة في السموات كما هي المعلقة في الأرض على الأبواب إنها ذات الشاعر ، الإنسان .. حامل النبوءة .. و لسوف نقرأ قدر الشاعر المخبأ ..! (القدر المستحيل) ..

هذه الصورة تتناص باحتدام المشاعر وحدة الألم و ضيق النفس ، مع قصيدة الشاعر "نزار قباني"،(قارئة الفنجان)[**] ، ففي هذه القصيدة يجتزئ الشاعر أيضا من نفسه ذاتا أخرى يتحدث بلسانها عن نفسه ، إنها (العرافة) ، قارئة الفنجان ، و لسوف تقرأ هذه المتنبئة الراقدة في أعماق نزار قباني ، خيوط القهوة التي جفت في قلب الفنجان المقلوب و الفنجان المقلوب كناية عن القدر المخبأ المنكفئ ، كما كانت الجراحات قدر الشاعر و لكنها غمامات تسافر تدنو و تهرب .! إن خطوط القهوة هنا تشبه الوشم و تشبه الأطلال و الطلاسم ، كما تشبه أحلام الشاعر التي انهمرت و طارت في السماوات و الأرض تشكيلات خطية فنية ،تحكي ما خطه القدر و تغزل قدر الشعراء في خيوط وخطوط و تشكيلات متنوعة من الرسوم .. و بما أن الشاعر – إطلاقا – باحث عن أسرار الخلق المقدسة المحرمة على معارف البشر ، فإن قدره لاشك مرعب ، و من هنا تجيء البداية المرعبة للنص (جَلسَت و الخوفُ بِعينَيْهَا ، تتأملُ فنجاني المقلوبْ ..) و تجيء كذلك البداية و يجيء الانفاذ العميق (جرس أطارده صدى يسافر غمامة تدنو و أخرى تهرب ؟) ، إنها – العرافة و الجرس– تتأمل قدر الشعراء الباحثين عن مرامهم في اللامكان في مجهول اللغة ، و مجهول العالم و ممالك الخيال ، مواطن الرغبة

المستحيلة . وتكمن المفارقة المدهشة في اعتراف الشاعر بمعرفة مصيره المأساوي ، الذي ينتظر كل من يعلق برغبة مستحيلة ، و كأنها الطابو الأعظم و لكن بريق الرغبة القصوى يضن حتى بمنح الموت معنى، و هكذا يمضي الشاعر نحو بريق السراب غير آبه و لا هياب ، يتجرع الكأس التي تجرعها غيره : (و برغم جميع سوابقه و برغم جميع حرائقه ، الحب سيبقى يا ولدي أحلى الأقدار) ، (و ستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان!) / (جرس أطارده فيجرحني رنين ، غمامة تدنو تهرب ، و أنا أهرول في سهوب العمر أبحث عن جراحاتي التي انهمرت هنا) (أم أنها طارت إلى آفاقها تتلهب !) .

لعل المد في (أطارده ، الرنين ، صدى ، يسافر ، سهوب ، جراحاتي ، طارت ، آفاقها ، يسيل ، البروق ، الأعشاب ، الأهداب ، الصبابة ، يكاشفني ، مراياها ، أحداقها ، الطفولة ، الضباب ، الخضراء ، زفرات ، النواميس ، الإغواء ، روحانا ، الوجود ، السدائم ،حمائما ، الندى ، المدى ، البداءة ، المهجور ، الجدباء ، السراب ، السديمي ، المعجزات ، السارون ، الدجى شهاب ، اليباب !) ، يوحي و يفجر من معاني صور الصراع النفسي للشاعر ، و صراخه و رفضه لخنق الذات و الشعر ، هذه الحرية التي لا تبغي إلا الانطلاق ، و الامتداد في ظل بقاء القصيدة ،مركزا في تجربة ما سمي بالشعر الحر ، و لم تستطع برغم ما حققته من اختراق ، أن تنأى بنفسها عن مركزية التدوين أو عن القصيدة القديمة كمدونة ، و مرجع فمنجزها ظل يراوح منجز القصيدة ، فالحداثة ظلت ذات صلة بالقصيدة كنموذج ، مثقلة بمحمولات عقائدية أيديولوجية ، جعلتها من حيث هي نظام تشكيلي و ايقاعي ، طقسا مشحونا بالعقائدية ، تماما كما كانت قصيدة الشطرين طقسا مشحونا بالعقائدية لدهور سبقت ،ذلك أن كل شكل نظام يتحول إلى طقس يحمل بالإيديولوجيا السائدة ،و إفراغه لا يؤدي إلى نتائج حقيقية ، إلا حين تستبدل بعملية ابتكار لشكل نظام مغاير تماما "[4]، فهذا الامتداد في النفس و الإيقاع، يترك إحساسا بالسير الطويل و التحليق في الأجواء ، في جهد مضن تتواءم و حالة الحزن التي تترد في أصداء فكر (لوصيف) من مشاعر ، هي مزيج من (الهدوء الساكن) و(العنفوان المتألم) ، و في أصداء الشعر العربي المعاصر ، عامة ، فهذه الحركات ، تفسح مجالا واسعا لآهات و أصوات الشاعر بالانطلاق ، تجسيدا لحالة الانطلاق ، الاختناق العنيف عند (لوصيف) و في إحساسه بقيود المرض الذي يدب في جسده و روحه معا و يشمل حركته و جسمه فيطلق العنان لصوته بالحرية مع تأوهات الغيبوبة العاصفة ! .

جرس أطارده فيجرحني الرنين ...

هو إذن الجرس رمز للحرية في شكل أشكال امتزاج الحياة بالموت .. هي رغبة مستحيلة ، تبدو على هيئة ، رغبة جامحة بما لا يطال و لا يمكن بلوغه ، أو حلم آسر يطارده المرء ، بلا هوادة و لا يملك التوقف عن السعي وراءه ، متخيلا أن في سعيه بلوغ أسمى مطامح الحياة و ما في سعيه – حقا – إلا الموت ، سعى إليه بالأقدام ! .و في هذا كله ، لن يجدينا (عثمان لوصيف) ، بل لعله أن يقدم وهما خياليا و خداعا ، هاهي أجراسه، جراحاته أفكاره قد بلغت من الثورية غايتها ..هاهي ترفض الواقع ، تهجوه !هل هذا حقا ما تريده أجراس عثمان لوصيف ؟ و كأنه (أنوبيس) في الأساطير الجنائزية الفرعونية و هو إله الموت. كان يجوب المقابر .وهو مرشد الموتى إلى عالم الخلود. كان يزن قلوب الموتى خيراً، أوشراً. ثم يقرَّر مصيره الأبدي.و قد اشتهر برأس ابن آوى (الذئب). إنه ذئب مقدس... لا كذئاب البشر! و كأنه (وهاديس) هو إله أوملك العالم السفلي- عالم الموتى في الأساطير اليونانية. واشتهر بخوذته التي تخفيه عن الأنظار (طاقية الإخفاء)، فاسم هاديس: المخفي.

يظهر لدينا ، تراكم المشاهد في النص ، هذا المشهد الذي يبدو في تعداد رموز النص ، بتوال تسقط فيه أدوات الوصل – و هذا ما كان في نصوصه الاتية.....

روح أنا و الكون روح
يا نحلة طنانة إني أسيح
جرحا تؤججه المدائح
و المدى بحر فسيح
الشمس نبع و النجوم زنابق
و الغيم خباز و شيح

، هو تراكم لصورة تزاحم الألم ، عند لوصيف و كأنه في وعيه بمأزق النص و القصيدة الذي كان أحد أهم ما هجست به البيانات الشعرية المعاصرة متصلة ببيانات أدونيس و التي كانت إحدى أهم المنجزات الفلسفية و أكثرها إصرارا على تأكيد استنفاذ القصيدة لذاتها "[5]، إن عناصر الطبيعة و تزاحمها تشكيل لغربة ذاتية ، ينعاها الشاعر ، هاته الغربة (ليس لها غير أن تتقاذفها فلوات الرياح !) مزهوة و تتلهب ، أي نوع من الآلام و الحسرة و الغربة و أجراس الموت الداخلية ، تدغدغ الأرض المريضة ؟ . الحق أن الشاعر ، قد قال كلمته و نبه – في هذه التجربة – و دق أجراس الخطر ، و إنه لسطر تعجز اللغة عن أن تصور معناه على النحو الذي صوره الشاعر .

فجيعة الموت و دهشة اللغة الثانية :

يبقى الشاعر تجربة و صوتا مفتوحا فاغرا ، في دهاليز و ردهات الوجود و غرف النفي ، الروحي الذي استخلصه لنفسه و كان إطاره الذي يشمل كل معتقداته و تجاربه و أفكاره ، و حواصل نزعاته ، كان الشعور بالانهزامية أمام الإطار العام لفكر الوجود الذي عاشه الشاعر و تعايش معه ، كحقيقة ملموسة للمعاناة الإنسانية بمفهومها العام ، و التي بدورها أصبحت مؤثرا هاما و نشطا في عقليته و تصوره حيث إن الفضاء ، هذا القوس المفتوح في المشهد ، عبارة عن ناتج و مستنتج ، فالشاعراختزل جزء القصيدة في نصه العنوان بعد تراكم المشاهد ، و هو مدرك لدورها ، لذا فإنه يلحقه بمونولوج (حوار داخلي) : (و أصير طفلا يستجيب للغوها ..و يضيع في أحداقها الخضراء ..يا ليت الطفولة سحرها لا يذهب ..) ، و يظهر فن التجانس الموسيقي ، الذي أغرم به الشاعر ، و وفق في استغلاله (تتلهب ، يطرب ، تهرب ، فأشرب ، لا يذهب) ، و يلفت انتباهنا في صور الشاعر ، الحسية البارزة ، في انتقاء جذورها و مفرداتها ، كما مر بنا من تفصيل للوقائع و الأحداث ، " فاستخدام الصور و تحديدها ، و تسمية الأشياء بأسمائها ، بدل الكناية عنها ، أغنى و أقرب ، إلى المحسوس ، و إثارة المشاعر و ألصق بحواس الإنسان المختلفة ، من أصوات و ألوان ، و أكثر إيحاءا بمعانيها "[6] . و قد تجمع حسن التقسيم و بلاغة الجناس في قوله : (الأعشاب ، الأهداب) ، و الجناس هنا ليس مجرد حلية لفظية و حسب بل هو حلية فكرية تتطاول و تتعاظل و يشقها أحيانا توتر عال ، و لكأنما تبدو نصوص (لوصيف) منحوتة في سبكها ، حيث اقتصادية اللغة و صرامة إيقاعها ، يرين عليها شجو تأملي شفيف ، لا تكاد تفصح إلا عما هو قابل للمح دون تعرية له في ضوء كاشف ، كما يدل على ذلك قول الناقدة ثريا عبد الفتاح ملحس : " الشاعر يشتاق الى التحرر من كل شيء متمنيا لو تنطلق روحه في الفضاء تشرب النور "[7]. إنها تكوينات جمالية تصويرية ، في نأي جاهد عن المألوفية و سهولة التقبل ، و عن الارتباط بنموذج جمالي و دلالي متشكل قائم في النصوص الشعرية الأخرى ، و تبقى رموز (لوصيف) تتجانس و تتوحد و تتشكل في مفعولها :

فبرعت مزهوّة
أم أنها طارت إلى آفاقها تتلهّبُ
ويسيل لحن من فمي
فإذا البروق تدغدغ الأرض المريضة
تمسح الأعشاب والأهدابَ

والشجرُ المضرّج بالصبابة.. يطربُ
وإذا الطبيعة كلها سرّ يكاشفني
فأبصر في مراياها الحميمة طفلة عصماء
تسقيني الحنان فأشربُ
وأصير طفلا يستجيب للغوها
ويضيع في أحداقها الخضراء

يمكن إجمال هذاالمشهد الأول كله في بنية استنباطية ، في سطر و احد : (**وأصير طفلا يستجيب للغوها ويضيع في أحداقها الخضراء**) ،حتى يصبح الشاعر صفحة منكسرة من تاريخ المدن التي انهزمت بدورها .. هي إذن أحزان الشاعر الأخيرة الوقعية ، سطر يأسى فيه من جدوى الكلمة الشعرية في هذا العصر الغارق في دوي الطبول و جعجعة الطواحين الخاوية !!. فليسترح القلب .. في غفوته الأخيرة !.(و أصير طفلا ..؟)

الشاعر (عثمان لوصيف) ، يتفاعل مع عناصر الكون و الطبيعة في بنية عميقة و يتوحد معها ، بعد أن يختارها برية غير داجنة كالجراحات المشردة و الأمطار و الأقدار المعلقة بين السماء و الأرض ، " و الكاتب هنا ليس عبدا للأشكال بل خالق و خائن لها في آن واحد "[8]، الشاعر ، الجرس ، الصدى يمثل عنصر الحركة بين المحورين المتوازيين الثابتين هما السماء و الأرض ، و داخل هذا الإطار السكوني ، يتلاحم الشاعر مع أشياء الكون ، عن طريق علاقات التشابه و التضاد و التقاطع، يتولد صراع يتحكم فيه و يغلب عليه قطبا السكون ، لاكتشاف رؤية متعددة الأصوات ، نستعين ، بالمخططات التوضيحية التالية :

غمامة تدنو و أخرى تهرب
فإذا البروق تدغدغ الأرض المريضة
أمطار لا تتعب
و إذا الطبيعة كلها سر يكاشفني
و تفيض ملء حقولنا الجدباء
وابل يغشى اليباب

نلاحظ هنا تناظر التركيب اللغوي للعناصر الطبيعية ، حيث توظف مفردات لغوية من الطبيعة ، لتتضافر مع المضمون الكلي للجمل الشعرية ، فتصبح الأرض و السماء ، رمزا للحرية و الإنعتاق ، التي تواجهها قوى كونية أبدية و معادية ، صادمة ، لا قبل لكائن بقهرها و دحرها .

إذا عدنا إلى هذه العناصر و عنصر (الجرس الصدى) ، فإننا نجد البنية ، التشكيلية في المشهد ، تتكون من فضائين متمايزين ، على النحو الذي يوضحه لنا هذا المخطط البياني :
الفضاء الأول يتمثل في الزمن في بعده المطلق و تتحدد عبر هذا الفضاء العلاقة بين الجرس و العناصر الطبيعية الكونية،(غمامة ، السماء ، آفاق ،) .
الفضاء الثاني و يتمثل في الأسطر الشعرية (الأرض المريضة ، الطبيعة ، الضباب الندى ..) ، تتكشف المفارقة التصويرية الحدثية في ذات الشاعر حيث يقع في شباك الخيبة ، و انقشاع الوهم و سقوط الحلم .. و إلى رؤيا مأساوية أو احتفالية ، احتفائية لجوفائية الحياة و فراغها ..الداخلي و تناقضاتها و مفارقاتها اللاذعة و الناجعة و المثيرة للرعب والفرار و الاشمئزاز و السخرية .. أنه التحول المنسلخ،المنفصل ، المنفعل ، المحايد ، المتشظي ، العالق في السموات ! و الطفولة (يا ليت للطفولة سحرها لا يذهب)

إن الفضائين غير منفصلين ، إذ يربط بينهما حضور شخصية الشاعر(لوصيف)، يدلنا هذا على أن السموات قبة ثابتة تسمح للريح و هي عنصر حركة مجتاحة و جارفة أن تنسج خيوطها العنكبوتية فتصنع فخا أو شبكا ثابتة لاقتناص ماضي الطفولة ليبصر في مراياها الحميمة الطفلة العصماء ، أما الأمطار ، وهي مصدر ثابت للحياة و الموت،

عملية إعاقة العناصر الطبيعية (الطفولة) ، تثير مسألة (الحداثة / السلطة / النص) ، إلى تحول النص إلى جسد لغوي يمارس فيه و عبره الشاعر ، فعل البحث عن عالم جديد ، و كلما تنوعت الصور الحسية تنوعت المعارف فتنوعت التجليات فوقع التحول و التبدل في الصور "[9].و نحن قد نكون الآن أمام تحول جديد في التجربة الشعرية (لعثمان لوصيف) ، الروحية ، الكونية ، تصبح فيها العناصر الطبيعية ، (الغمامة ، الضباب ، الأعشاب ، الأرض ، ..) هي النص الذي يمارس فيه الشاعر، عنفه، تمرده ، تناقضه ، رهافته، حساسيته ، و اقتضاضه لكل المراحل السابقة و تملكها للأشياء و الأدوات لأسباب مماثلة لما مضى و لغير ذلك أيضا ! .

ثمة احتمال قوي لأن يكون لهذا الانصباب للعناصر الطبيعية بعد خفي يرتبط بتقلص مجال فاعلية (الأنا) ، في العالم الذي يعيش فيه الشاعر الآن ، و سقوط الأوهام ،

الكبيرة المتعلقة بالدور النبوئي ، التغييري ، الثوري ، للشاعر و الشعر ، و ازدحام الفضاء بجحافل القمع السياسي ، و الاجتماعي و الأخلاقي و الديني ، في آن ، و قد تكون دلالة ذلك كله ، مزدوجة ضدية ، ينقض وجه لها وجها آخر ، إذ يمكن أن تكون من جهة تجسيدا للإحساس بالعجز و اليأس في مجال الفاعلية في العالم الخارجي الحقيقي ، بصورة تدفع الفنان الشاعر ، إلى الانكباب الإفتضاضي الشارخ بعنف لشخصيته كما القصيدة " فالبنية الجديدة التي تعتمدها الكتابة باعتبارها مقترحا جماليا مخلخلا لأسس بناء القصيدة و لمفهوماتها المتوالية هي بنية مفتوحة العلاقات تقوم على الجوار لا الأنصهار "[10]، كما يمكن أن يكون التجسيد الاحتضاري لروح التمرد و المقاومة في سكرات موتها الأخيرة ، في وقت تطغى فيه السلطة و الحركات الدينية السياسية ، بما تفرضه من قيود و اضطرابات بشكل خاص على الفكر ، و بهذا المعنى تكون التجربة الجمالية للشاعر ، تحديا و رفضا آخر ، مباشرا للفكر السلطوي و الديني المتزمت ! ، و رفضا لنص قائم و لكتابة نموذجية .

منتهى .....

عثمان لوصيف شاعر له ما يميزه عن أغلب الشعراء المحدثين الجزائريين فهو يكتب بلغة أقرب إلى النثر العادي ، على أنه يتمكن بها من رسم صورة حسية بارزة ناتئة في خشونة قاسية وهو يوظفهما في اقتدار عن تهكميته الحادة وسخريته الشديدة المرارة في كتابة مغايرة والتي تجعل منه نسيجا متفردا ؛ فالشعر عنده ليس مجموعة من المواد الكيمياوية إذا وضعت بعضها مع بعض صنعت قصيدة ؛ فالإحساس بأنه في حضرة الشعر يأتي عن طريق الوجدان أولا وليس عن طريق العقل ،الشعر عنده فن وصناعة في الوقت نفسه .هو تأسيس لكتابة مفتوحة في هاجس ابتداء تخريب الذاكرة و رفض للنص الأول .يتقاطع هذا مع قول النفري :

أنت عابر كل شيء؛ فجزت فرأيت كل شيء، ورأيت على وجه كل شيء، معنى كل شيء.

فقال : و جز كل شيء و جز معنى كل شيء فألقيت النظر و أخرجت الهم فقال : مرحبا بعبدي الفارغ من كل شيء [11].

و هذه التصورات في صياغتها عند الشاعر عثمان لوصيف ، متكاملة في طبيعتها و رؤاها و مفاهيمها ، تجمع بين فعل الحياة و بين فعل الكتابة و الشعر ، ليصبح (فعالية ذاتية خاصة) [12]، و مشروطا (بكسر حدث الإحتواء)[13] ، و لما كانت اللغة هي هيكل النص و عموده ،

فإن الشاعر استثمر خصائص اللغة (و اعتمد على قوة التعبير من إيحاء المعاني في لغته التصويرية الخاصة به ، و في لغة الشعر يخضع التعبير لقوانين اللغة العامة ، (و لكنه يفيد مع ذلك من اعتماده على دلالات القرائن ، و ما يمكن أن تضيفه هذه الدلالات على التصوير عن طريق موسيقية التعبير)[14] ، و بذلك فقد مثل جيل التفعيلة و المغايرة في مرحلة جديدة مختلفة تماما ، من مراحل التجديد الشعري الجزائري المعاصر ، و قد امتد بالرؤيا في حد ذاتها ضمن سياق فكري ، شكلته مجموعة من الظروف السياسية و الإجتماعية و الفكرية ، و اختار تشكيل أدوات و رموز و علامات ، ذلك (لأن الرموز ليست تراكما آلي لكيانات مستقلة بذاتها و لا صلة بينها)[15] بل كانت تشكل نسقا ثقافيا مفتوحا ، ذلك أن الوعي عند الشاعر عثمان لوصيف هو إعادة نظر مستمرة في اللغة و المعرفة و الإيقاع و الرؤيا ، و تجربة مؤلمة، صدمة نفسية، إنه اكتشاف الوحشة والأسى، في كل دواوينه و نصوصه ، و هذا راجع إلى(قيمة المستوى الموسيقي في القصيدة و الناتج عن العناصر الصوتية)[16] و هي غاية في حد ذاتها ، عند عثمان لوصيف فهو يعيد تشكيل السلسة الصوتية في كل مقطع ، (دلالة على الصراع بين الانفصال و الاتصال في القصيدة ،) [17] بين زمن الانكماش و زمن الانفتاح ، هذا الصراع التي يراه البعض انكسارا، هو في حقيقته جسر نحو الإنسانية، نحو الرضا والتصالح مع النفس، الأنا، الذات، هذه الأحزان أمان من التصحّر، وتلك الآهات أنفاس إضافية.. اللغة و الكتابة حياة عند الشاعر عثمان لوصيف .

الهوامش :

*عثمان لوصيف : ولد عثمان لوصيف سنة 1951 بطولقة تدرج في مراحل وأطوار تعليمية مختلفة منذ الكتاب الذي حفظ فيه القرآن إلى غاية حصوله على شهادة الدكتوراه في الأدب العالمي عن أطروحة حول الشاعر "رانبو".

عرف عن الراحل تفرده في السلوك والحياة كما في الشعر، فقد كان متصالحا وصوفيا في الشعر والحياة، وقد شكلت نصوصه فتوحات في الشعر الجزائري من ديوانه الأول "الكتابة بالنار" المنشور سنة 1982.

أصدر الفقيد 18 ديوان شعر عبر مسيرته، أغلبها على حسابه الخاص كما عاش متكتما ولم يشارك في أي فعالية رسمية داخل أو خارج الوطن.

ترك لوصيف خلفه أعماله الشعرية الفارقة والتي اعتبرها النقاد ومتتبعو الشعرية العربية من أهم ما كتب في الشعرية المعاصرة، منها "أعراس الملح" و"كتاب الإشارات" و"نوش وهديل" و"قراءة في ديوان الطبيعة".توفي في 27 / 6 / 2018

[1]عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر، 2008، ص 9/8.

[2]إعتدال عثمان ، إضاءة النص ، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ،لبنان ، ط1، 1988 ، ص 172 .

[3]كمال أبو ديب ، جماليات التجاوز أو تشابك الفضاءات الإبداعية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1977 ، ص 247.

**انظر القصيدة كاملة : نزار قباني ، قصائد متوحشة ، منشورات نزار قباني ، بيروت ، لبنان ، ، ص 68 .

[4]كمال أبو ديب ، جماليات التجاوز أو تشابك الفضاءات الإبداعية. ص 181/180.

[5]ادونيس ، تأسيس كتابة جديدة ، مجلة مواقف ، عدد 17/16/15 ، 1971.

[6]علي عباس علوان ، تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، (اتجاهات الرؤيا ، و جماليات النسيج) ، وزارة الإعلام ، بغداد ، العراق، 1975 ، ص 474 .

[7]ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه و حديثه، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ص 337.

[8]أدونيس ، بيان الحداثة ، مجلة،مواقف ، عدد 36 ، 1980.

[9]صلاح بوسريف ، حداثة الكتابة في الشعر العربي المعاصر ، دار فضاءات للنشر ، الأردن ، ط 1 ، 2018 ، ص 69 .

[10]المرجع نفسه ص ن181.

[11]المرجع نفسه ، ص 69 .

[12]محمد صابر عبيد ، تمظهرات القصيدة الجديدة (مقاربات إجرائية في الرؤيا و الشكل و الأسلوب) ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 ، 2013 ، ص 51 .

[13]محمد لطفي اليوسفي ، كتاب المتاهات و التلاشي (في النقد و الشعر) ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 2005 ، ص 137.

[14]محمد عبد الرحيم عدس ، فن الإلقاء ، دار الفكر ، الأردن ، ط 1 ، 2009 ، ص 114.

[15]محمد فتوح أحمد ، تحليل النص الشعري (بنية القصيدة) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 1 ، 1995 ، ص 37 .

[16]سامح الرواشدة ، مغاني النص (دراسات تطبيقية في الشعر الحديث) ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 2006 ، ص 113.

[17]إسماعيل شكري ، في معرفة الخطاب الشعري (دلالة الزمان و بلاغة الجهة) ، دار توبقال للنشر ن المغرب ، ط 1 ، 2009 ، ص 173.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1 - عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر، 2008، ص 9/8.

المراجع :

1 - أدونيس ، بيان الحداثة ، مجلة،مواقف ، عدد 36 ، 1980

2 - أدونيس ، تأسيس كتابة جديدة ، مجلة مواقف ، عدد 17/16/15 ، 1971 .

3 -إسماعيل شكري ، في معرفة الخطاب الشعري (دلالة الزمان و بلاغة الجهة) ، دار توبقال للنشر ن المغرب ، ط 1 ، 2009 ، ص 173 .

4 - إعتدال عثمان ، إضاءة النص ، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ،لبنان ، ط1، 1988 ، ص 172 .

5- ثريا عبد الفتاح ملحس ، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه و حديثه ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ، ص 337 .

6 - سامح الرواشدة ، مغاني النص (دراسات تطبيقية في الشعر الحديث) ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 2006 ، ص 113.

7 - صلاح بوسريف ، حداثة الكتابة في الشعر العربي المعاصر ، دار فضاءات للنشر ، الأردن ، ط 1 ، 2018 ، ص 69 .

[8] - علي عباس علوان ، تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، (اتجاهات الرؤيا ، و جماليات النسيج) ، وزارة الإعلام ، بغداد ، العراق، 1975 ، ص 474 .

[9] - كمال أبو ديب ، جماليات التجاوز أو تشابك الفضاءات الإبداعية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1977 ، ص 247.

10 - نزار قباني ، قصائد متوحشة ، منشورات نزار قباني ، بيروت ، لبنان ، ، ص 68 .

11-محمد صابر عبيد ، تمظهرات القصيدة الجديدة (مقاربات إجرائية في الرؤيا و الشكل و الأسلوب) ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 ، 2013 ، ص 51 .

12- محمد لطفي اليوسفي ، كتاب المتاهات و التلاشي (في النقد و الشعر) ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 2005 ، ص 137.

13- محمد عبد الرحيم عدس ، فن الإلقاء ، دار الفكر ، الأردن ، ط 1 ، 2009 ، ص 114 .

14- محمد فتوح أحمد ، تحليل النص الشعري (بنية القصيدة) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 1 ، 1995 ، ص 37 .